صلوات فكر

فى محاريب الطبيعة

للأستاذ عبد المنعم خلاف

[كتب كثير من هذه الخواطر فى «الرستمية» بالعراق العزيز ، فهى مهداة إليه]

وما رأيت أرضاً ينعف فيها الشعور بالحياة كالعراق !

فهناك طلاسم مخبوءة فى التراب والأعشاب للسحر وتفتح القلب للحياة والحب ...

وهناك تاريخ البشرية الأولى يحرك فى نفس الحي الحس بالزمان ...

وهناك سحر هاروت وماروت لا يزال يجدد شباب قلب القارة العجوز : آسيا ...

حيث يفيض الماء دم الحياة غزيراً مدراراً ..

وحيث يفور النفط نهر اللهب غزيراً مدراراً ...

فينبت من بينهما إنسان ذو جذوة بيضاء وأخرى حمراء ! فى جماجم عانية عمرت الحياة بالنسك والفتك فى حياة الهدى وحياة الضلال ...

وهناك ملتقى الكيد وحرب الأجناس والأجيال فى تلك الأرض السوداء ، على هامش الصحراء الصفراء ، وبين هضبة إيران وجبال كردستان تلتقى الأنواع من إنسانها وحيوانها وحشراتها ... ففيها من كل جنس شاخص أو طلل . . هبت على قلبى فيها ريح الشمال من صحارى القرغيز وسهوب سيبريا ، وريح الجنوب ، من خضم تحمل مواعينه الطيوب والأفاويه ، والسحر الأسود من القارة السوداء وجزر الهند ؛ وريح النار من أرض الفرس ؛ وريح الموت من الهند أرض الاسترخاء وفناء الأجساد وجنون الأرواح بالأسرار ، وانسلاخ القوى وتجسيم الخيال !

إنها طلعة جبارة من طلعات الطبيعة تطلق أشباحاً ترقص فى الأوهام والظنون ...

فلا عجب إذا وعيت بعد هذا كله من أسرار الحياة ما جعل فكرى دائم الصلاة !

---

١١ — أبجد (*)

أبداً أكرر دروس الطفولة فأتهجى أسماء الأشياء حتى لا أنسى ...

أبداً أحترم الطبيعة البدائية كما يحترم الأطفال كبار القوم ..

أبداً أسير إلى الأمام وعينى إلى الوراء ، حتى لا أضيّع طريق العودة إلى أحضان أمى ...

لى ذهن سحرى يزوى لى الأيام الماضية ويحضرها لأعيش فيها فترات ثم يردها إلى مكانها من التاريخ ...

أسير وفى يدى مهدى الذى ولدت فيه ، حتى أصل إلى اللحد الموعود لأراهما معاً يتقابلان ...

أحتفظ دائماً بوجهى أمى وأبى حين رأيتهما لأول مرة بين الشباب والكهولة من عمرهما ... ولن أنسى هاتين الصورتين حتى أرى وجه الموت ... فأقابل بين الثلاثة ؟

ولدت فى غيبوبة ... فهل أموت فى غيبوبة ؟

١٢ — عناية الطفولة

الطفولة هى موضع عناية الله . . . ألا تراه يضم كل جنين أو صغير ناشئ بحنان ويشق له بيده طريق الحياة !

فمواضع يده اليقظة الرفيقة هى البراعم المتفتحة والمناطق النامية تلفها بأقمطة وأربطة ، وترصد حولها حراساً من الأشواك والمرارة والمواد قاتلة المكروبات والحشرات

إنها تستكثر من البويضات وجراثيم الحياة وتخرجه بالملايين التى تعجز قوى الإفناء عن إتلافها جميعاً لتسلم الحياة وتدوم الأنواع.

إنها تحب ذلك العالم الجميل البرىء الذى لم يقبح ولم يتدنس ولم تحتله بعدُ قوى الشر .

إنهم يدخلون باسمين للنور والطعام واللعب يسألون عن كل شىء الشمس لهم والمرعى والليل ، ولهم السعى والعمل والحب فى منطقة الخديعة من قلوب الأمهات والآباء

حُملان وجراء وأشبال وأفراخ وبراعمُ وأطفال . أولئك هم الأصدقاء السائرون معاً فى وكْبَةٍ من مواكب الحياة ...

١٣ — الدوام

هل رأيت الدنيا تخلو يوماً من أشيائها ؟

أبداً ترى عصافير متحدة فى الشكل والصوت تطفر على الأشجار والأغالى ...

وأبداً ترى هذه الدار مأهولة بالشمس والقمر والنجوم . . . نجوم السماء ونجوم الأرض ...

الأرض دائماً تقرع بالأقدام ، والصبح دائماً معه صوت الطير ...

(*) أنظر الأعداد ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٩

أبداً فيك يا دنيا شباب متوّجون بالطُّرة السوداء والغرّة المشرقة ، والشفاه الباسمة ...

أبداً يلعب الأطفال فى أمكنة اللعب ويتصايحون عرابيدَ مِهاراً فى الملاعب ...

أزور دائماً أمكنة طفولتى فأجدها عامرة بالأطفال الذين احتلوا مكانى أنا ورفاق صباى ...

أترانى أرى دوام هذا الكون العظيم ... هذا الضياء الغامر الفياض ، هذا الليل الرائع الجبار . . . هذه الرياح العاتية الجارفة الزّخارة ... هذا العُباب الهدّار الرّجّاف الرَّجْراج ... هذه الصحراء الطامسة الفاغرة . . . هذه الجبال الراسية الشامخة . . . هذه السماء الرحبة البعيدة المدى ... ثم أرى ذاتى إزاء هذه العوالم ضئيلاً ضعيفاً فانياً ثم لا أصرخ فى وجوهها صرخة تدوى بها هيواتُ الرياح ، وتتلقفها الجبال ، وتذهب أصداؤها فى الأعماق والأغوار ... صرخة تتمثل فيها كل معانى إحساسى بفنائى وضعفى وضيائى بينها من غير سند ولا عاصم أعتزُّ به وأطُول وأصولُ ؟ !

لماذا تبقين وأنا أذهب ؟ وتتجددين وأنا أبْلَى ؟ وتبصرين هذا الجمال الدائم وأنا أعمى وأطمس ؟ وتسمعين أصوات هذه الحياة العجيبة وضجتها وأنا أصَمُّ ؟

لماذا تُتَوِّجين دائماً بلآلئ الصباح وذهب الضحى ورصائع النجوم ، وتتجملين بأصباغ فاتنة من وَهَج الظهيرة وطَفَل الأصيل وشفق المساء ، وتتعطرين بأنفاس الأزهار ... وأنا أجرد من حَلْيى وغُرّتى وطُرّتى ، وتَنْصِلُ أصباغى ، وتتفكك أعضائى ، وتحبس روحى عن هذا الوجود ... حتى أنتهى إلى أن أنظر الكون من مِحْجَرىْ جمجمة يسكنها الفراغ والظلام ، وتسكن هى فى أعماق حفرة ضيقة تضحك لظلامها بفكّين مجرودَين مقبوحين حتى تمسها يد البلى فتتركها رُفاتاً سحيقاً بعد أن تملّ الظلام ويملّها ؟ !

لماذا تُمنحين ما أُحرَم وأنت عديمة القلوب والعيون ، وأنا ذو القلب الراقص دائماً على خفق الأدواح وضفق الرياح ، الجائع دائماً إلى الأحاسيس والمعانى المعلنة والباطنة ، وذو العين الرائدة الباحثة عن الحركات والألوان وسمات الوجوه وأشكال الأجسام !

لماذا يا عدالة السموات والأرض ؟ أفى الحق ذلك ؟

كلا ! فليست العدالة هى التى قسمت هذا وقالت به ... وإنما هى العقول السطحية اليائسة القاصرة قالت به ...

ولكن عدالة الأكوان ومنطق القلوب — أوعية الحياة — هما يقولان ببقاء هذه النفس لهذا الكون ونقلها إلى جمال أكمل وأسمى وأدوم ، وعالم من القدرة والتسلط أكثر هولاً وفنّا وأعظم ، وعالم من الانطلاق والتحرر أرحب وأنعم !

والموت الموعد !

١٤ — نهايات الغايات إلى غاية واحدة

وإنى لأهتف حين تهبُّ على قلبى نسماتٌ خفية تثير فيه حساسيته بالدوام والخلود واللانهائية ... ثم أرى أمامى كل غايات الحياة الأرضية متهافتةً أمام العقل لا تمنعُ عشاق الخلود والآملين فيه :

هل لى يا سيد الوجود شىء فى ملكوتك الجميل الخالد يبقى وأحوزه لنفسى بعد فنائى ورحيلى من هنا ؟

أم أنا ذاهب من كل هذا الجمال ومعانى الآمال كَتِبنةٍ ذهبت مع الريح ، أو ورقة أحرقت فى موقد ، أو حشرة عمياء صغيرة سحقت تحت قدم ... ؟

وهل يكون نصيبى من ملكوتك هذا الرحب الواسع الغنىّ بمعانى الحياة مكاناً مبهماً فى جوف الظلمات وأطواء العدم وسكون الجمود ، حيث لا إحساس بهذه الحياة ولا بما وراءها ... وحيث لا أمكنة لأشياء إذ لا أشياء إلا تلك الصور المطموسة التى ينقلها الخيال الإنسانى من عالمها هنا إلى هناك ، حين عجز أن يتخيل الفراغ والعماء ؟ !

إننى يا سيدى لا أصدق ، لأن ضميرى قطعة من ضمير الوجود كله ... !

وكيف أصدق أن ما فى عينى من الصور ، وما فى سمعى من النغم ، وما فى قلبى من أحاسيس ، وما فى فكرى من قضايا الكون والفساد وأحلام الكمال ، تذهب هكذا كأن لم تكن !

إنهم أطفال أولئك الذين يقصر خيالهم عن إدراك المدى الحيوى الباقى للانسان وراء هذه الحياة الدنيا، كما يقصر خيال الطفولة عن إدراك عوالم الرجولة وبلوغ الأشُد فى دنيا الأجسام ...

فكل غايات الحياة الأرضية متهافتة فانية أمام العقل ، لا عمر لها إلا خطفات زمنية ، ولا وزن لها تجاه الأبد الكبير ... والهادفون إليها فانون ، إلا إذا دارت حول غاية واحدة : هى الله والبقاء معه ...

عبد المنعم خلوف